الشعر وأفعال الأمر والتصميم

بقلم الدكتور جبران خياط

بعض الشعراء كانوا ينظرون الى الرعية كما ينظر سيد متغطرس لمسود ، او معلم متخلف لتلميذ ، يفترضون فيهم الجهل المطبق والاستعداد التام للتلقين فيحيلون شقاءهم نعيما وفقرهم غنى وتخلفهم حضارة بنصح يتلوه ارشاد يعقبه توبيخ ، معتمدين في هذا أفعال الامر وأدوات التصميم مثل : يجب وينبغي وعلينا وعليكم ويا لهم ويا لنا ، فاذا قرئت قصيدة في محفل وحظيت آنيا بالتصفيق خرج فريق من الناس بعدها خائفين مستفزين لا يعرفون ما يعملون ، ومن ثم قد يطيلون التفكير بما جاء في تلك القصيدة من أفعال التوجيه والتوجيع واذا بهم في آخر الدنيا تخلفا وانخذالا ، وعليهم أن يتقدموا وينهضوا حالا !! ولكن كيف ؟! لم يقل لهم الشاعر ، لقد أعطى ايعازه ومضى ، فلا أسهمت تلك القصائد في انهاضهم ولا بعثت في نفوسهم الثقة ولا حثتهم أن يتفهموا أو يطوروا مرحلتهم الراهنة ـ مهما كانت متخلفة ـ الى ما هو أكثر ثباتا وأعمق تطلعا .

ويدرك فريق اخر من الناس ان أفعال الامر وأدوات التصميم لا تجدي نفعا ولا تحرق شمعة ولا تهز مرقدا ولا تنهض أمة ، انما هي الى الهدم الغبي أقرب منها الى البناء ، وهي ليست الا فعلا مباشرا يعقبه رد فعل آني كأن تقول قف فينتصب أمامك مارد ، أو أن تقول سر فيبتعد عنك مريد ! أما أن تنهض أمم وتتقدم بلاد وتنفض عنها غبار الانخذال والانحلال والتمزق والتشتيت وتعيد بناء مجد غابر وتقيم أسس حضارة حديثة ، فهذه مسألة تحتاج الى أكثر من فعل أمر والى أبعد من « يجب » .

وهكذا يقف الشاعر في الوسط معلقا بين شخص ينظر اليه من عل مستخفا بأفعال أمره مدركا عقمها ومتخذا السلبية موقفا ازاءها ، وبين شخص ينظر اليه من أسفل خائفا منذعرا من أفعال أمر جديدة ! وهكذا فشل هؤلاء الشعراء في أن يعبروا عن مشكلات عصرهم الحقيقية وهموم العامة والرعية ، ولم تصلح قصائدهم لسوى المحفوظات المدرسية وصرخات الشباب العاطفية .

هذا الاسلوب التقريري الآمر ، المباشر ، المعصور عصرا يطرق أذن القارىء المشدوه ، المتحير ، الخائب بقوة فيعطل فيه الحواس ولا يشركه في المسألة والموضوع ، فعليه أن يكون صدى لاوامر الشاعر ومنفذا لاحكامه ، والويل له ان ناقش أو سأل أو اعترض .

وهذه التقريرية في الاسلوب حصيلة كسل في التفكير والعطاء ، وسذاجة في التلقي والسماع ، وايثار للعافية على اقلاق الذهن بمتناقضات الوجود ، وكأنك بشاعر من أولاء الآمرين تطلب منه رأيا في كتاب يقول : الكتاب مفيد ، فاذا ازددته قال : ان الكتاب مفيد ، واذا أصررت صرخ : ان الكتاب لمفيد ، وان لم تقتنع أو ترضى فستلاحقك شتائمه وقد يهجم عليك بآلة جارحة أو قد يتهمك بالمروق على كل ما تواضع عليه البشر من مقدسات .

هل كانت أقوال هؤلاء الشعراء ـ كل الشعراء المصلحين المباشرين الذين ظهروا في مطالع القرن العشرين ـ تصدر عن تفكير وتأمل ؟.. ولا أقول معاناة ، هل أعادوا النظر فيما أنشأوا بعد سنين ورأوا تأثيره وفعله في الناس أو قابليته على الخلود ؟ هل كانت الكتابة عندهم غاية أم وسيلة ؟.. أم اختلط الامر فلا هي غاية ولا هي وسيلة ، انما هي فقط تصفيق في محفل ، وأعد على شفاه ، وأحسنت يا أستاذ !!..

لقد كانت نياتهم طيبة وأهدافهم نبيلة ـ بلا شك ـ والا لما نقلوا موضوعات شعر الفترة المظلمة الفردية الى عالم الناس الرحب في دنيانا هذه ، ولصرفوا أقوالهم ذهبا في سوق مدائح الملوك والكبار وعاشوا مترفين ، فلا بد ان رسالة ما اجتماعية أو سياسية دارت في أذهانهم ظنوا انهم في سبيل تطبيقها ولكن الزمن لم يقرهم عليها ـ وان نجحوا أحيانا في تنبيه الناس الى أمور خفيت عنهم ـ أو انهم ظنوا ان عليهم أن يثأروا لما خلفته الفترة المظلمة من انحطاط وجهل واضطراب فأرادوا اصلاحا سريعا شاملا فوريا يقلب وجه الحياة ، فما وجدوا غير أفعال الامر وسيلة لذلك ، ولم ينتبهوا الى ان الاسلوب التقريري المباشر فاشل في هذه الميادين ولا يترك سوى اثر وقتي عابر ولم يلفتهم النقاد الى ذلك ، وهل كان لمن يتطفل على فعل أمر أو يتطاول على أداة تصميم أو يعترض على توبيخ ونصح ... صوت ؟!!

ولعل هؤلاء الشعراء في تعجلهم الرفعة والمجد قد قلدوا أحدهم الاخر في التوجيه والتقريع والامر فافتقد قسم من انتاجهم الاسلوب المميز الذي يفصح عن صاحبه، واذا جمعنا عشرين قصيدة آمرة من عشرين شاعرا من شعراء مطالع القرن العشرين وضممناها في كتاب لما عرف قارىء مثقف وأديب متذوق في زاوية ما من هذا العالم لم يتح له أن يقرأ هذه القصائد بالذات انها لعشرين شاعرا ، فأين هو الاسلوب : شخصية الشاعر المميزة

وذهنيته الوقادة وأصالته الفذة وموهبته المكتملة ؟!

الشاعر من تعرفه بكلماته ، بأسلوبه وموقفه ازاء الاشياء ، مهما اختلفت موضوعاته واحساساته ، من تعرفه بجوه الخاص الذي يشيعه أمامك ، وبلحظات ابداعه التي تجد نفسك مشاركا في معاناتها وتمثلها ، من يكشف لك عوالم جديدة ويعينك على أن تقطع حياة مثقلة بالخطايا متحررا من الخوف والشر والوهم ، أما أن تأتي بشطر لشاعر أموي مثلا وتكمله بعجز لشاعر عباسي فيستقيم المعنى وتنطلي الحيلة فهذا ليس بأسلوب قط .

واليك هذه الابيات :

لمن تركت فنون العلم والادب
يا جهل من غير سعي منك أو تعب
تلك المدارس قد أوحشتها فغدت
أعوبة في يد الاحداث والنوب
ما ان تركت لها في العلم من وطر
فان مكروبها أعدى من الجرب
والخير قد ضاع حتى ان طالبه
يرد عن ذي حقوق كف مغتصب
أما الرجال فنار الشر موقدة
اذا بقيت بلا مال ولا نشب
افعالهم لم تكن جداً ولا لعبا
فبعدك العيش لم يحسن ولم يطب

الشطر الاول من هذه الابيات للرصافي من مرثية بعنوان : « في موقف الاسى » ، والعجز للزهاوي من قصيدة بعنوان : « يا جهل » قالها قبل الدستور ، وأنا لا أريد أن أشوه قصائد الناس ولا أقول بأن الشعر كله يمكن أن يركب بعضه على بعض كما فعلت ، وانما تعمدت هنا أن أخلط بين هذه الاشطر والاعجاز ، وكثيرا ما قرأنا ـ عفويا ـ شطرا لشاعر وأكملناه بعجز لاخر ، ولا ترد المسألة الى الوزن والقافية فقط فهي أعمق من ذلك ، ولعلها ترجع الى شخصية الشاعر وعقليته ورؤياه وموقفه من هذه الحياة وأصالته وتجاربه ومن ثم أسلوبه .

ودوران أكثر الشعراء في فلك واحد وموضوعات معينة دون أن يكون لهم أسلوب مميز جعلهم يكثرون ـ وخاصة في الفترة المظلمة ـ من التشطير والتخميس واشتهر منهم من كان سريع البديهية في الارتجال ، وترددت في بعض الاندية الادبية حكايات عن شعراء كانوا ينظمون الشطر الواحد ويطلبون من شعراء آخرين أن يجيزوه ، وعن أحدهم أظهر براعة فائقة حين طلب هو أن يجيز أشطر شعراء آخرين لصعوبة التقفية في العجز ، بعد أن كان عليه أن يجتاز امتحانا بأن يشطر للاخرين فيجيزوه ، ولم تنقطع أنفاسه الا بعد أن تجاوز الثلاثمئة والخمسين بيتا ، وقد نلتقي شاعرا ينظم أمامنا بكل فخر شطرا ثم يجبهنا بأجزه ، فاذا عجزنا فهذه دلالة الفشل الذريع واذا أجزنا فهذه علامة الادب الرفيع ، أما الاسلوب والتجربة والشعور والاصالة فهذه أمور ألفتها الاكف المصفقة في ضجيجها !

وهذه بعض أشعار الامر والتصميم نظمت قبل عشرات السنين ووردت في ديوان الزهاوي فيها تصنيف للبشر وتخطيط لحياتهم ، ودفعهم بالقوة الى الرقي السريع ودمغهم بلعنة العصور ان لم يفعلوا ما أمر به الشاعر ، لا توحي كلماتها بسوى المعنى المعجمي المعروف ، ان تتجنب أفعال الامر والتصميم تتخذ لها من المبتدأ والخبر قطبا تدور حوله أخيلة الشاعر :

ان الحياة سعادة وشقاء يتعاقبان وضحكة وبكاء

هكذا ومن ثم :

انما الناس ان نظرت اليهم آكل في الحياة أو مأكول

وبهذا الإخبار اليابس المعصور يريد الشاعر أن يخلق عالما جديدا يركب فيه الناس المخاطر :

ان من كان ذا حجى ونشاط طلب الفوز يمتطي الاهوالا

ومن بعد هذا يتنفس الشاعر ملء رئتيه فقد أدى واجبه وأصلح الناس ، ولكن الواقع ما زال يعكر صفو مزاجه الاصلاحي فيهاجم القوم بقوله :

نصحت للقوم في شعري فما سمعوا
كأنما القوم في آذانهم صمم
أخلصت نصحي لهم أرجو تقدمهم
فكان منهم جزائي انهم شتموا

وبأي نصح كان يتقدم الى الناس :

اشحذ سلاحك واستعد به لمعترك الحياة
اشحذ سلاحك للدفاع عن الحقوق الواجبات
اشحذ سلاحك وهو علم تقتنيه بلا فوات
علم بأسرار الطبيعة والجماعة واللغات

فقد حان وقت التقدم :

صف الحقيقة للشبان يا قلمي
فكل ظني ان الوقت قد حانا

وحين لا يشحذ أحد سلاح الحقوق والواجبات يثور الشاعر ويتهم الناس بالكسل ويسدد اليهم أفعال أمره سهاما تنفذ الى حيث يكمن الجهل والكسل والتأخر :

ألا أيها الشعب الكسول المضيع
تيقظ الى كم أنت في الجهل تهجع
وغير من العادات ما ليس ينفع

وأين منهم ذاك الفتى الذي ينتسب الى الرشد :

يا قوم أنتم على غي يضر بكم أما هناك فتى للرشد ينتسب

وحين ييأس الشاعر من الاصلاح يخاطب الجهل بكثير من الوقار :

لا شيء في الشرق أعلى منك منزلة
يا جهل حسبك هذا العز من حسب

وهذا قسم آخر من أشعار الامر والتصميم نظم قبل سنين وورد في ديوان الرصافي :

هلم يا قوم نسعى الى حياة سعيدة
فان قينا افتقارا الى أمور عديدة

ـ التتمة على الصفحة ٦٠ ـ

الشعر وافعال الامر والتصميم

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

الى اتحاد وسعي الى المساعي المفيدة
أتراها دعوة الى وليمة أو سهرة ؟!

أيها الناس انذا العصر عصر العالم والجد في العلى والجهاد عصر حكم البخار والكهربائية والماكنات والمنطاد

وفي تذكيره الناس بما يعرفون لم يطرح طريقة للحاق بهذا العصر وتعديه ولم يقدم حتى اقتراحا يمسك بأيدينا ويقودنا نحو النور :

نهوضا الى العز الصراح بعزمة
تخر بمرماها الطغاة وتركع
ألا فاكتبوا صك النهوض الى العلى
فاني على موتي به لموقع

وانها لعاطفة رائعة من الشاعر أن يسهم في انهاض أمته بهذا الشكل ، وما عليه ان لم تحدث أبياته الاثر الفوري فتتغير معالم الدنيا ، وهو يصنف الناس في الشرق تصنيفا عجيبا :

وما الناس الا اثنان في الشرق كله
جهول تلهى أو حليم تبلدا

ويحاول أن يخلق جمهورا يتذوق الفنون :

ان رمت عيشا ناعما ورقيقا
فاسلك اليه من الفنون طريقا

واجعل حياتك غضة بالشعر والتمثيل والتصوير والموسيقى تماما كما يشتري والد لابنه حاكيا أو فرشاة أو آلة تصوير ومن ثم يذهب الى المقهى يباهي بمواهبه !

ويردد الشاعر أيضا :

وما ينفع القول الذي أنت قائل
اذا لم يكن بالفعل منك يؤيد
فيا قومنا ان العلوم تجددت
فان كنتم تهوونها فتجددوا

وهكذا تنتهي مهمة الشاعر بالقول ، وعلى الناس أن يقوموا بالفعل ، وما يترتب على هذا الفعل من أمور جسام . ويبدو ان الشاعر يدرك ان أفعال الامر لا يمكن أن تحدث الاثر الذي يبغيه من نهضة كاسحة ماحقة تقلب وجه الارض ، لذا فعلى البشر أن يتحملوا وزرهم :

دع الاناسي وانسبني لغيرهم
ان شئت للشاء أو ان شئت للبقر
فان للبشر الراقي بخلقته
من قد أنفت به اني من البشر

فبعد جولات وصولات يؤمن بأنه يصيح في واد وينفخ في رماد :

فالقوم: أما حظهم فقد رقد عنهم وأما سعدهم فقد خمد
منهم وأما نحسهم فقد وقد وقد أضاعوا مجدهم الى الابد
وقد وقد ، وقد وقد ، وقد وقد

هذا الشعر الذي نجد شيئا منه في دواوين شعراء مطالع القرن العشرين يلغي احساس القارىء وشخصيته وعقله ويورثه النكد واليأس والنكوص والانكماش ، فهل كانت هذه المعاول التي أنزلها الشعراء على رؤوسنا تعبيرا عن فشل ، أم تبديدا لطاقة كامنة ذات روح فروسية ؟! هل كان هؤلاء الشعراء يحسون انهم دون ما يستأهلونه مكانة ومنزلة فأرادوا أن يقاتلوا بأشعارهم الظلم والجهل والتأخر ؟ لقد حصلوا على مجد رفيع بين الناس واحترام بالغ ، ولو شاءوا لنالوا مناصب خطيرة وثروات هائلة ، ولكنهم رفضوا مختارين أن يسيروا في ركاب الحاكمين ، فبدأوا بعملية اصلاح الشعب ، فما السر في أفعال الامر والتصميم هذه واتخاذها أشكالا مباشرة تؤدي الى ان الناس أشرار متخلفون ، جهلة ، لا خلاق لهم ، ولا خير فيهم ، ولا يمكن لزمن أن يصلحهم ، ولا لرجل أن يوجههم ، ولا لدولة أن تقيل عثرتهم فهم ضائعون بهائم ، مصيرهم الموت ان لم ينفذوا ما يأمر به الشعراء وما يخططون من مشاريع اصلاحية تحيل الجهل علما والليل نهارا ! ولمصلحة من هذه الروح التي أشيعت في بلادنا ؟ ولم أورث هؤلاء الشعراء الناس الشك والتشاؤم والعجز واحتقار الذات وازدواج الشخصية حتى تفشت هذه الافكار في كلامنا اليومي العادي فاذا بالرجل أبا أو أخا أو صديقا أو معلما أو شاعرا يقرر بعد زلة صغيرة ـ حقيقية أو متصورة ـ مهما ضؤلت أن ليس هناك من أمل في تقدمنا ورقينا !

هذا ما فعله بعض شعرائنا ومفكرينا مدفوعين بحسن نية حتما ، ولكن الاثار المباشرة لاسلوبهم التقريري المباشر كانت سلبية ومخيفة وتدعو الى التأمل واعادة النظر .

ليس هناك من جو يشيع في النص الادبي الآمر المباشر ، الضارب بمطرقة ، الداخل بلا استئذان ، فلا يستطيع القارىء أن يشارك في تفهمه ، فمهمته التلقي والتنفيذ ، وليس هناك رؤية في هذا النص الادبي يمكن للقارىء أن يكشف فيها ريادة الشاعر لعوالم جديدة فينفذ اليها بالكلمات ، وليس هناك ما يجمع بين الشاعر والقارىء على صعيد واحد ، حتى اذا ما تمثل القارىء نصا أصبح يراه ويسمعه ويلمسه ويتذوقه واذا بحواسه كلها تتوحد فيه ، أما أن يصدم القارىء بفعل أمر معطل لا يستطيع له فهما أو تنفيذا فهذا ليس من مصلحة الشاعر أو القارىء وهو ليس من الفن في شيء ، ولقد سئم القارىء النصائح والاوامر التي أشبعته حياته اليومية منها ، وما وطأ أولئك الادباء الكبار للثورة الفرنسية بأفعال أمر مباشرة .

لقد ترك الشاعر المجدد في أيامنا هذه الاساليب التقريرية المباشرة وأفعال الامر الخائبة ، ودأب يبحث عن أسلوب مميز وجو أصيل وشعر عربي مبدع يشترك فيه الشاعر والقارىء معا لخلق عالم أدبي بعيد عن أفعال الامر والتصميم .

جلال الخياط